التبغ وشاربوهُ

مقالة مالية ضحية أدبية

لما بلغت الاعانة العسكرية في القطر المصري اربعين الف جنيه كنا نحسب بكرم المتبرعين بها فقال لنا رجل من نوابغ الكتاب انها شيء زهيد لا يزيد على ثمن التبغ الذي يحرقهُ المصريون في اربعة ايام . فدهش الحاضرون من كلامهِ اما نحن فلم نندهش لانا نعلم انهُ يالحق نطق فقد احرق المصريون في العام الماضي تبغًا ودفعوا ثمنهُ ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات فهم يدفعون عشرة آلاف جنيه ثمن التبغ الذي يحرقونهُ كل يوم او اربعين الفًا من الجنيهات في اربعة ايام

وقد يتوهم البعض ان القطر المصري يخسر هذه الاموال كلها كل عام . وهذا بعيد عن الصواب وانما هو يخسر المثال الذي يدفعهُ للبلاد العثمانية ثمن التبغ وهذا المثال لا يزيد على نصف مليون جنيه في السنة . واما الثلاثة الملايين الباقية فيعطي مليونين منها للحكومة المصرية (رسم الجمرك) والحكومة تدفع جانبًا منهُ للمستخدمين وتنفق جانبًا في الاعمال النافعة وتحفظ جانبًا في صندوق الدين الى حين الحاجة اليهِ . وكلهُ مالٌ باقٍ في القطر المصري لا يضيع منهُ درهم . والمليونان الباقيان اجور ومكاسب لصنّاع السكائر وتجار التبغ وباعتهِ على اختلاف درجاتهم وهما باقيان في القطر المصري ايضًا لا يضيع منهما شيء ويضيعهما يُستثمر في السكائر التي تُصنع في هذا القطر وترسل الى البلاد الاوربية فتباع باضعاف ثمنها الاصلي . ولا يبعد ان تجار التبغ يستردون بها نصف مليون الجنيه التي دفعوها للبلاد العثمانية فيصير التبغ كالبضاعة الوطنية التي تصنع في البلاد وتشتمل فيها وما يبعها وشراؤها سوى مقايضة بين المتعاملين بها فالزارع يبتاع تبغًا من بائع الدخان بجنيه ويبيع الدخان يبتاع حنطة من الزارع بجنيه فيرد لهُ الجنيه الذي اخذهُ منهُ كأنهما تبادلا التبغ والحنطة . ولا يرى ان بينهما فرقًا كبيرًا فان شاري الحنطة اشترى بها بقدير و يهنيء عيالهُ واما شاري التبغ فلم يشترِ ما منهُ اكل فائدة لهُ او لعيالهِ لكن هذا الفرق الكبير بينهما لا يؤثر في حالة البلاد المالية لان الجنيه بقي فيها سواء كان في صندوق بائع الحنطة او في صندوق بائع التبغ

ويقال ان القطر المصري مصرف جدًا في ما يحرقهُ من التبغ سنويًا وان الحكومة

المصرية تقاضى من رعاياها مكوساً فاحشة بأخذها مليونًا من الجنيهات عن التبغ وحدهُ . وهٰذا القول في محلهِ بالنسبة الى فائدة التبغ فانها لا تساوي عشر معشار ما ينفق عليهِ بل لو تبصَّر الناس في امرهم وتدبَّروا اموالهم ولم ينفقوها الاَّ عَلَى ما يوازيها نفعًا لما انفقوا عَلَى التبغ دينارًا واحدًا لانهُ ما من فائدة منهُ الاَّ ويمكن الاستغناء عنها ولان مضارهُ تربو على فوائدهِ . لكن محبي التبغ لا يسمعون فيهِ قول عاذل ولا يصغون الى نصح ناصح ومصيبتهم في هٰذا القطر اخف من مصائب غيرهم في غيرهِ . وقد قيل انظر الى مصائب غيرك فتهون عليك مصيبتك ولذلك رأينا ان نقابل احوال هٰذا القطر من حيث تدخين التبغ باحوال غيرهِ من البلدان

يحرق المصريون كل سنة نحو ١٢ مليون رطل مصري من التبغ وعددهم نحو ثمانية ملايين نفس فلو قُسم هٰذا التبغ على عدد النفوس لاصاب كل واحد رطل ونصف رطل فهم من اكثر الناس اعتدالاً في تدخين التبغ كما يظهر من هٰذا الجدول

يصيب الهولندي مما يحرق في بلادهِ من التبغ سنويًا		٧	ارطال
والاميركي من سكان الولايات المتحدة	١/٢	٤	الرطل
والنمسوي	٨/١٠	٣	"
والدنمركي	٧/١٠	٣	"
والسويسري	٣/١٠	٣	"
والبلجي	٣/١٠	٣	"
والالماني		٣	"
والسويدي والنروجي	٢/١٠	٢	"
والنرنسوي	١/١٠	٢	"
والانكليزي		٢	"
والمصري	١/٢	١	"
والروسي والاسباني	١/٤	١	"

فالمصري اكثر اعتدالاً من الانكليزي والنرنسوي والسويدي والنروجي والالماني والبلجي وهلمَّ جرًّا ولا يفوقهُ اعتدالاً في تدخين التبغ الاَّ الروسي والاسباني

ثم ان ثمن التبغ في القطر المصري رخيص بالنسبة الى ما هو عليهِ في الممالك الاوربية فحكومة فرنسا تأخذ على الثمانين مليون رطل التي تحرق فيها سنويًا اكثر من خمسة عشر مليونًا

من الجنيهات (اخذت في العام الماضي ٣٧٦ ٣٠١ ٨٠٠ فرنك وتدرت بكس الرقم هذا العام ٣٨١ ٢٠٠ ٠٠٠ فرنك) . والحكومة الانكليزية تأخذ على الثمانية والسبعين مليون رطل التي تحرق فيها سنويًا نحو احد عشر مليوناً من الجنيهات (اخذت في العام الماضي ١٠ ٧٤٨ ٢٢٠ جنيهاً) والحكومة الايطالية تأخذ على ما يحرق فيها من التبغ نحو ثمانية ملايين من الجنيهات واما رسوم التبغ في القطر المصري فبلغت في العام الماضي نحو مليون من الجنيهات لا غير . واذا فرضنا ان الذين يدخنون هم ربع السكان من كل مملكة فكل واحد من الذين يدخنون في القطر المصري يدفع الى الحكومة المصرية نصف جنيه في السنة وكل واحد من الذين يدخنون في انكلترا يدفع إلى حكومته جنيهاً في السنة وكل واحد من الايطاليين يدفع الى حكومته جنيهاً ايضاً وكل واحد من الفرنسويين يدفع الى حكومته اكثر من جنيه ونصف في السنة . فالمصري مدخن التبغ يربح اكثر من غيره بالنسبة الى ما يدفعهُ الى حكومته فلا هو مفرط في تدخين التبغ ولا الحكومة مفرطة في اخذ الرسوم منهُ . ولعلَّ ذلك يعزي الذين يحزنون حينما يرون امواله تحرق امام عيونهم بان اخوانهم الايطاليين والانكليز والفرنسويين يتفقون على هذا الدخان اضعاف ما ينفقون هم

وقد قيل ان البلايا اذا اخفت خفَّت وطأتها واي بلية اعم من التبغ فان عادة تدخينهِ منتشرة في كل الممالك والبلدان ويحرق الناس منهُ في السنة الفي مليون رطل انكليزي يدفعون ثمنها خمس مئة مليون جنيه على ما قدَّر المقدِّرون . ومزارعهُ في اميركا وحدها تبلغ اربع مئة الف فدان ويعمل في زراعتهِ هنالك اربعون الف نفس

هذا من حيث الوجه المالي اما الوجه الصحي فشأنهُ اعظم والبحث فيهِ اهم اذ كانت مضار التبغ الصحية كما يزعم بعض شانئيهِ فهي تربو على مضارهِ المالية اضعافاً كثيرة . والبحث في ذلك علمي وخلاصتهُ ان التبغ من عائلة كبيرة من عيال النبات فيها نحو تسع مئة نوع وبعض هذهِ الانواع سامٌّ حتماً كعنب الثعلب والبرنج وبعضها سامٌّ بوجه وغير سامٍّ من آخر كالبطاطس فان اوراقهُ واثارهُ سامة بخلاف جذورهِ التي تؤكل وعليها يعتمد ملايين من الناس في غذائهم .

والجنس المسمى نيكوتيانا الذي منهُ التبغ فيهِ اكثر من اربعين نوعاً . ثلاثة منها تستعمل للتدخين وهي التبغ الاميركي (نيكوتيانا تباكم) والتبغ الشامي (نيكوتيانا رستيكا) . والتبغ العجمي او التنباك (نيكوتيانا مرسيكا) . واختلافها قائم في شكل اوراقها وخشونتها ولذعها . الاول يزرع في اميركا ويجود في كل الاراضي وينهك الارض سريعاً لشراهتهِ للغذاء ويعطر

احياناً حتى يبلغ خمسة امتار وذلك نادر والغالب ان يكون طولهُ مترين وساقهُ غليظة كرسغ اليد وهي متشعبة من اعلاها واوراقهُ كبيرة خضراء مصفرة طول الورقة منها قدمان وعرضها قدم ونصف وزهرهُ وردي اللون وبزورهُ صغيرة في الدرهم منها ٨٦٠٠ بزرة

والتبغ الشامي اميركي الاصل وقد نقل الى بلاد الشام منذ عهد طويل وهو اصغر من التبغ الاميركي يعلو ثلاث اقدام الى اربعة واوراقهُ صغيرة بعضها في الجذع الاصلي وبعضها في فروعهِ وازهارهُ ضاربة الى الخضرة . ومنهُ التبغ التركي على انواعهِ . هٰذا ما يقال في كتب النبات ولكننا نرى التبغ الذي يزرع في جبال لبنان اقرب في شكل اوراقهِ ولون ازهارهِ الى التبغ الاميركي منهُ الى هٰذا التبغ

والتبغ العجمي او التباك ازهارهُ بيضاء وبعض اوراقهُ فلا يدخّن في السكاكير بل في النارجيلة حيث توضع النار عليهِ ثم يبرَّد دخانهُ بالماء

واذا سألنا الكيماوي عمَّا في التبغ من العناصر السامة قال انهُ اذا نقع رطل مصري من اوراق التبغ في الماء ثم قطر هٰذا الماء كما يقطر ماء الزهر على بُعد الشبه يتها طفا على وجه الماء سائل زيتي رائحتهُ كرائحة التبغ وطعمهُ مرٌّ وهو يؤثر في الفم والحلق تأثير التدخين المستطيل واذا اخذت قليلاً منهُ على رأس ابرة وبلعتهُ اصابك دوارٌ وغثاء الاَّ ان مقدارهُ الذي يستخرج من الرطل لا يزيد على قمحتين وزناً . واذا اضيف الى الماء قليل من الحامض الكبريتيك (زيت الزاج) واستقطر مع الجير خرج من اوراق التبغ سائل قلوي زيتي طيَّار هو النيكوتين اي الاصل الفعال في التبغ وهو من اقوى السموم فعلاً فان نقطة منهُ تقتل الكلب . وهذا السائل يغلي عند الدرجة ٤٨٢ بميزان فارنهيت ويصعد بخاراً حالما يحترق التبغ ولذلك لا يخلو دخان التبغ منهُ

ولا نطيل الكلام في وصف مضار التبغ ولا سيما لاننا كتبنا فيها فصلاً مسهباً في الجزء الاول من المجلد السابع عشر وفصولاً أُخرى في السنين السابقة ولكن نقول بالاختصار ان المضار الصحية غير كثيرة اذا كان الانسان بالغاً فلا يحسن المبالغة فيها

قال الدكتور السر بنيامين رتشردسن الشهير ان التبغ يحسب غير ضارٍّ اذا قوبل بالاشربة الروحية وضررهُ اقل جداً من ضرر الافيون وهو ليس اضر من الشاي . وقول هٰذا الطبيب المجرّب حجة قاطعة لان مباحثهُ ونتائجهُ كلها علميَّة خالية من شوائب الغرض ولكن اذا كان شارب التبغ فتىً صغيراً فالمضار كثيرة وخيمة العاقبة لا سيما وان الاكثار من تدخين التبغ يوقف نمو الصغار كما ثبت بالامتحان . قال الدكتور رتشردسن ان

التدخين للصغار كلهُ ضرر وخطأ وقباحة والولد الذي يشرع فيهِ صغيرًا يقل نموهُ ويصير ابح الصوت بطيء الحركة دميم المنظر قليل العمل

وبحث الاستاذ جنصتن الكيماوي في تركيب التبغ ومنافعهِ ومضارهِ فقال "اذا امكننا ان نجد عقارًا لا ضرر منهُ يخفف الهموم ويزيل الغموم ويسهل تعاطيهِ على كل احد على الصعلوك الحقير كما على الامير الخطير على الطريد الشريد الذي لا سمير لهُ الا انيس كما على الغني السعيد المحفوف بالخلان والاصدقاء فمن زال من قلبهِ الحب والحنان حتى يجب من ان ملايين من ابناء نوعهِ يتهافتون على ذلك العقار ليجدوا فيهِ الراحة والسلوى. وانا لم اجد في التبغ شيئًا من هذه المزايا ولكني لا انفي وجودها لانني لا استطيع ان انكر شهادة الملايين من نوع الانسان الذين ينسبون اليهِ ذلك التأثير على ان تأثيرهُ يختلف باختلاف الامزجة"

وقد تكلم السر جوزيف هوكر عن تأثير التبغ في امة الترك فقال انها اشتهرت من قديم الزمان بعلو الهمة وشدة البأس واقتحام المخاطر ثم سكن جاشها وخلدت الى السكينة والفضل في ذلك لهذا النبات الاميركي على ما قالهُ الجنرال ملتكي الشهير

وكثيرون من المشاهير عاشوا وماتوا ولم يذوقوا طعم التبغ ولكن كثيرين منهم ايضًا كانوا من كبار المدخنين. ذكر المستر هيورد ان السر اسحق نيوتن الفيلسوف الشهير الذي عاش ومات عزبًا مسك مرة يد فتاة كانت جالسة بجانبهِ فاحدثت اليهِ الانظار وكأنهم حسبوا انهُ اخذ يدها حبًا وغرامًا اما هو فكان يدخن بجوزهِ (غليونهِ) وكأنهُ شعر ان التبغ سدهُ فاستعان باحدى اصابع الفتاة لنزع السدادة فلم يرتح لذلك. ونقل هيورد هذه النادرة عن السر دافد بروستر وكتاب بروستر عن نيوتن في مجلدين كبيرين وقد طالعنا الآن اكثر الفصول التي نظن ان هذه النادرة مذكورة فيها فلم نعثر عليها فيهِ

وخلاصة القول ان الناس ينفقون على التبغ قدر ما ينفقون على الخبز تقريبًا وان المقدرين اكثر اقتصادًا في التدخين من غيرهم من الامم الاوربية وحكومتهم اربح من غيرها من الحكومات وان التدخين يضر بالصغار كثيرًا وبالكبار قليلاً وان الذين اعتادوهُ يجدون فيهِ شيئًا من الراحة والسلوى